الشعر والفنون

على الرغم من أنَّ درس العلاقة بين الفنون والشعر أمر غير معروف في أوساط النقد العربي القديم عدا المقارنات الأولية بين الشعر والتصوير، أو الصياغة والنسج. وهي مقارنة لا تتعدى التشابه الشكلي، علما أنها تتم بين الشعر والفنون النفعية غالبا، فإن بحث الشعر دفع الفلاسفة إلى دراسة علاقته بالفنون. فبعد وضعهم الفواصل بين الشعر وأصناف المعرفة المنطقية، ضيقوا الدائرة لبحث الصلات بين الشعر والفنون. والحق أن هذا الاتجاه كان صدى لآراء أرسطو في المسألة؛ حيث وضّح في مطلع (كتاب الشعر) أن الفنون بما فيها الشعر تختلف في المادة والموضوع والطريقة، وإن كانت تشترك جميعها في المحاكاة. وذهب الفلاسفة أيضا -عن طريق أرسطو، وحسب طريقتهم في الفهم- أن وسائل المحاكاة أو التخييل ثلاث:

- المحاكاة.

- والوزن.

- واللحن.

وهي عند أرسطو: الوزن، والقول، والإيقاع. قد تجتمع كلها في الشعر، وقد تكون تفاريق في فنون شتى؛ حيث تشكل المحاكاة لديه الأساس الذي يشمل الفنون كلها، في حين تبدو لدى الفلاسفة -حسب بعض مفاهيمها- وسيلة من الوسائل، وبهذا المدخل درسوا صلة الشعر بالفنون؛ فعلى مستوى المحاكاة -أي التصوير الشعري- لاحظوا الصلة بين الشعر والرسم؛ لاشتراكهما في الصورة، وعلى مستوى الوزن أو الإيقاع، لاحظوا الأساس المشترك بين الشعر والرقص، إذ إن خاصية الإيقاع تبرز في الرقص، فإذا كان الإيقاع هو انتظام الحركة في الزمان، فإن الرقص حركة تستغرق زمانا تتخللها أزمنة متساوية في الإيقاع. أما على مستوى اللحن، فكانت الصلة في بحثهم بين الموسيقى والشعر؛ فاللحن إذ يرتبط أساسا بالموسيقى يمكن أن ينضاف إلى وسيلتي التخييل الأخريين في الشعر: المحاكاة والوزن، كما هو الحال في الموشحات كما لاحظ ابن رشد، أو يكتفي كما هو شائع في الشعر العربي بالمحاكاة والوزنف: "والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغم المتفقة، ومن قبل الوزن، ومن قبل التشبيه نفسه. وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردا من صاحبه، مثل وجود النغم في المزامير، والوزن في الرقص، والمحاكاة في اللفظ؛ أعني الأقاويل المخيلة الغير الموزونة. وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثلما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة؛ إذ كانت هذه الأشعار الطبيعية هي ما جمعت الأمرين جميعا، والأمور الطبيعية إنما توجد للأمم الطبيعيين؛ فإن أشعار العرب ليس فيها لحن، وإنما هي إما الوزن فقط، وإما الوزن والمحاكاة معا فيها، وإذا هذا هكذا فالصناعة المخيلة والتي تفعل فعل التخييل ثلاثة: صناعة اللحن، وصناعة الوزن، وصناعة عمل الأقاويل المحاكية"[1].

ولا يكاد ابن سينا يختلف عن ابن رشد في المسألة، يقول: "والشعر من جملة ما يخيل ويحاكي بأشياء ثلاثة: باللحن الذي يتنغم به؛ فإن اللحن يؤثر في النفس تأثيرا لا يرتاب به... والكلام نفسه إذا كان مخيلا محاكيا. وبالوزن؛ فإن من الأوزان ما يطيش، ومنها ما يوقر، وربما اجتمعت هذه كلها، وربما انفرد الوزن والكلام المخيل، فإن هذه الأشياء قد يفترق بعضها من بعض، وذلك أن اللحن المركب من نغم متفقة، ومن إيقاع قد يوجد في المعازف والمزاهر، واللحن المفرد الذي لا إيقاع له فيه، قد يوجد في المزامير المرسلة التي لا توقع عليها الأصابع إذا سويت مناسبة. والإيقاع الذي لا لحن فيه قد يوجد في الرقص، ولذلك فإن الرقص يتشكل جيدا بمقارنة اللحن إياه حتى يؤثر في النفس"[2]

فصناعة الوزن، وصناعة اللحن أو الإيقاع، وصناعة التشبيه والمحاكاة، قد تفترق؛ فتوجد الأولى في الموسيقى، والثانية في الرقص، والثالثة تبدو في النثر الفني؛ حيث تتوفر فيه خصائص التصوير الشعري دون أن يصاحب ذلك وزن، فمنطلق الفلاسفة هو الشعر بما يتوفر فيه من وسائل التخييل، وتشكل المحاكاة إذ ذاك وسيلة.

والفلاسفة الإسلاميون يفرقون بين هذه الفنون والشعر في مواضع أخرى تفريقا يعتمد على إدراك المادة التي يعتمد عليها كلّ فن، "فيقرر ابن رشد أولا متابعا لأفلاطون أن المحاكاة كانت تتّم لدى الأقدمين بالصوت والشكل (الصورة)، ثم تحولوا إلى المحاكاة بالكلمات، إذ إن هذا النوع من المحاكاة أكثرها مناسبة لفن الشعر"[3] ويرى أيضا: "أن الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضا بالأفعال، مثل محاكاة بعضهم بعضا بالألوان، والأشكال، والأصوات"[4]. فابن رشد يدرك هنا الاختلاف بين الموسيقى والرسم والشعر في المادة، وإن اتفقت كلها في المحاكاة.

ويتجاوز الفارابي هذه الفنون إلى مقارنة الشعر بالنحت، يقول في ذلك: "والأقاويل الشعرية هي التي شأنها أن تؤلف من أشياء محاكية للأمر الذي فيه القول، فإن محاكاة الأمور قد تكون بفعل، وقد تكون بقول؛ فالذي بفعل ضربان: أحدهما أن يحاكي الإنسان بيده شيئا ما (مثل أن يعمل تمثالا يحاكي به إنسانا بعينه، أو شيئا غير ذلك)، أو يفعل فعلا يحاكي به إنسانا ما أو غير ذلك. والمحاكاة بقول هو أن يؤلف القول الذي يضعه أو يخاطب به من أمور تحاكي الشيء الذي فيه القول، وهو أن يجعل القول دالا على أمور تحاكي ذلك الشيء"[5]؛ فالمحاكاة بفعل قد تكون نحتا من خلال صنع تمثال لشيء محاكى، وإذ لا يتعرض الفارابي لمادة النحت التي هي المادة، فهذا لا يعني أنه يجهل ذلك، بل هو يظل هنا في مستوى التفرقة بين الشعر والنحت في طبيعة الممارسة التي تكون عملية "فعل" في النحت، وكلامية "قول" في الشعر، بدليل أنه يعتمد على مقارنة الشعر بالرسم على الاختلاف في المادة: "ونقول أيضا إن بين أهل هذه الصناعة وبين أهل صناعة التزويق مناسبة، وكأنهما مختلفان في مادة الصناعة، ومتفقان في صورتها، وفي أفعالها وأغراضها؛ أو نقول: إن بين الفاعلين والصورتين والغرضين تشابها،

وذلك أن موضع هذه الصناعة الأقاويل، وموضع تلك الصناعة الأصباغ، وإن بين كليهما فرقا، إلا أن فعليهما جميعا التشبيه، وغرضيهما إيقاع المحاكيات في أوهام الناس وحواسهم"[6]. فمادة الرسم الأصباغ؛ أي الألوان، ومادة الشعر الأقاويل؛ أي الكلمات، ومع ذلك يهدفان إلى غرض واحد، هو إيقاع التخييلات في أذهان الناس، ويستندان في ذلك على التشبيه.

ومع أن الفلاسفة يجرون مقارنات بين الفنون والشعر، ويلحون على بحث العلاقات بين الرسم والشعر، إلا أن ما يلونه لفنّ الموسيقى من خلال بحثهم له في كتب مفردة، كـ: (الموسيقى الكبير) للفارابي، و(جوامع علم الموسيقى) لابن سينا، و غير ذلك، يجعلنا نزعم أن هذا الفن يأخذ حصة كبيرة ضمن دراسات الفلاسفة.

ويتجاوزون في ذلك بحث الموسيقى النظرية، ودراسة آلاتها، إلى التركيز على غرضها الذي يتكامل وغرض الشعر، ومن هنا يكشفون التداخل العميق بين هذا الفن والشعر، بل يجزمون أن هذا الفن يستند في وجوده على الشعر، ويفصلون التكامل الدقيق بين أغراض الموسيقى في إحداث الانفعال أو التخييل أو الالتذاذ باللحن والشعر، بل يبخون أوزان الشعر انطلاقا من تعميم خصائص الإيقاع في الفنّين، ومع ذلك يبيح عصام قصبجي لنفسه أن يقول: "وفي هذا المجال، فإن المفارقات التي تبعث غلى التأمل حقا أن كلّا من الفارابي وابن سينا كان على بصيرة بعلم الموسيقى، بل إن الفارابي فيما يروى كان يؤثر في سامعيه فرحا أو حزنا، بيد أنهما عندما قرنا الشعر بالفنون، فإنما قرناه بالتصوير رسما ونحتا، ولم يقرناه بالموسيقى، على الرغم من أنهما كانا بسبيل عرض كتاب أرسطو في الشعر، وأرسطو حين قرن الشعر بالفنون إنما ذكر الموسيقى فضلا عن التصوير كما رأينا. بل إن ابن سينا ذاته جعل اللحن من عناصر التخييل الثلاثة، واستعمل في ذلك مصطلحات موسيقية، وأشار إلى أثر اللحن في النفس على نحو ينّم على شعوره بأثر الموسيقى، ولكنه مع ذلك لم يقل: إن الشعر محاكاة كمحاكاة الموسيقى، وإنما قال: إنه محاكاة كمحاكاة التصوير"[7]. ولنا أن نسأل الباحث عن رأيه في قول الفارابي مقارنا بين الموسيقى والشعر: "إن أفعال هذه الهيئة (يريد بها الموسيقى) تابعة لأفعال الهيئة الشعرية"[8]. وفي بحث وظيفة وغرض الألحان يرى الفارابي أن من وظائف الألحان: "ما يوقع في النفس تخيلات أشياء على نحو من التخيلات التي لخص أمرها في الصناعة الشعرية"[9]. وهذا يساوي قولنا: إن الموسيقى تخييل كالشعر، والعكس صحيح طبعا. ويبحث ابن سينا في كيفية محاكاة الأنغام الموسيقية للشمائل، كالشعر تماما: "وإذا حاكت النغمة شمالا الشمائل، فكأنها توهم النفس تكيفا بها، أو تكيفا بما يتبعها من مستحقاتها"[10].

أخيرا، سيتبين هذا الأمر في بحث غاية الشعر، إذ يقارن الفلاسفة بين الموسيقى وغيرها من الفنون، فيرى الفارابي أن "الألحان بالجملة -على ما قد قلناه في مواضع آخر- صنفان، على مثال ما عليه كثير من سائر المحسوسات الأخر المركبة، مثل: المبصرات، والتماثيل، والتزاويق. فإن منها ما ألّف ليلحق الحواس منه لذة فقط، من غير أن يوقع في النفس شيئا آخر، ومنها ما ألّف ليفيد النفس مع اللذة شيئا آخر من تخيلات أو انفعالات،

...و الصنف الأول هو قليل الغناء، والنافع منهما هو الصنف الثاني، وهي الألحان الكاملة، وهذه هي التابعة أولا للأقاويل الشعرية"[11].